مختصر كتاب

التزكية على منهاج النبوة

وهو يتضمن أهم موضوعات التزكية

التي يحتاج المسلم معرفتها والعمل بها

د. معاذ سعيد حوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾

« اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها »

الوحدة الأولى: مقدمات

تعريف التزكية وأهميتها

تعريف التزكية لغة:

أصل التزكية والزكاء والزكاة يدور حول عدة معاني، هي:

الطهارة، والنماء والزيادة والبركة، والمدح، والصلاح، وكله قد استعمل في القرآن والحديث[(١)].

فأما مدح الإنسان نفسه فقد ذمه الله تعالى[(٢)]، وأما باقي المعاني فهي داخلة في معنى التزكية المطلوبة شرعا، والتي نتحدث عنها، وهي تتضمن جانبين: جانب التطهير، وجانب النماء والزيادة والترقي، وكلاهما عامل في صلاح الإنسان.

تعريف التزكية اصطلاحاً:

لا يخرج معنى التزكية اصطلاحا عن معناه اللغوي، فهي:

صلاح الإنسان بطهارته من السوء والباطل، وارتقائه في الخير والحق.

وهذا التعريف هو وصف لحقيقة التزكية من حيث هي، وتطلق التزكية ويراد بها عملية التزكية وفعل التزكية، فتكون التزكية عندئذ بمعنى: **إصلاح الإنسان بتطهيره من السوء والشر، وتنمية الخير عنده، وترقيه فيه.**

وإنما يوصف الإنسان بالصلاح بقدر ما يكون عنده من الطهارة والارتقاء، وبقدر ما يطهر الإنسان ويرتقي؛ بقدر ما يكون مزكى أو زكيا.

وطهارة الإنسان من السوء تشمل طهارة عمله وطهارة قوله، تشمل ظاهره وباطنه، تشمل طهارة عقله وقلبه وجسده، تشمل طهارة اعتقاداته وأفكاره ونياته ورغباته وعباداته ومعاملاته وأخلاقه وأحواله، وتشمل طهارته من التأثر بما حوله من بيئة فاسدة ووسوسة شيطانية.

وترقية الإنسان في الخير تشمل ذلك كله، فتشمل ترقية العمل والقول والظاهر والباطن ...

ومعرفة الخير والسوء ترجع إلى الله ورسوله ﷺ، فكل ما كان حسنا خيرا في شرع الله فهو خير وحسن، وكل ما كان سوءا وشرا في شرع الله فهو سوء وشر، والعقول مهما عقلت واهتدت إلى معرفة الخير والسوء؛ فإن علم

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب: ج ١٤، ص ٣٥٨-٣٥٩، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ج ٢، ص ٣٠٧-٣٠٨. وخلاصة ومما فيهما:

زكا يزكو زكاءً وزكوّاً: النماء والزيادة والرَّيْعُ، في قوله تعالى: وقوله سبحانه: ﴿ وحناناً من لدُنّا وزكاةً ﴾ [مريم: ١٣] معناه: وفعلنا ذلك رحمةً لأبويه وتزكيةً له، والزكاةُ: الصلاح، ورجل تقيٌّ زكيٌّ: أي زاكٍ من قوم أتقياء أزكياء، أي صالحين، قال عز وجل: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء ﴾ [النور: ٢١].

وقد زكا زكاءً وزُكُوّاً وزَكِيَ وتزكّى وزكّاه الله وزكّى نفسه تزكيةً: مدحها، منه قوله تعالى: ﴿ فلا تزكو أنفسكم ﴾ [النجم: ٣٢] أي: فلا تمدحوها.

والزكاةُ: زكاةُ المال، معروفة وهو تطهيره، والفعل منه زكّى يزكّي تزكيةً، منه : قال تعالى: ﴿ وتزكّيهم بها ﴾ [التوبة: ١٠٣]: تُطَهِّرُهم بها، وقال تعالى: ﴿ أقتلت نفساً زكيّةً ﴾ [الكهف: ٧٤] أي: نفساً طاهرة بريئة من الذنوب.

والزكاة: الطيب، قال تعالى: ﴿ فلينظرْ أيُّها أزكى طعَاماً ﴾ [الكهف: ١٩] أي: أطيب طعاماً.

(٢) في قوله سبحانه: ﴿ فلا تزكو أنفسكم ﴾ [النجم: ٣٢].

الله فوق كل علم، بل هو سبحانه الذي أعطى خلقه بعض العلم، قال سبحانه: ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾[البقرة: ٢٥٥].

وحيثما ذكرت التزكية في القرآن الكريم فهي شاملة لهذين المعنيين: التطهير والترقية، كما بينه كثير من المفسرين.

فإذا أراد الإنسان أن يطهر نفسه؛ يطهرها من الكفر والشرك والنفاق والرياء، يطهرها من أمراض القلوب، يطهرها من المعصية كبيرها وصغيرها، يطهرها من الجهل والشبهات والشهوات والبدع، يطهرها من الأخلاق المذمومة.

وإذا أراد الإنسان أن يرقي نفسه؛ يرقيها بالإيمان واليقين، يرقيها بالسريرة الصادقة، يرقيها بالعلم النافع، يرقيها بالأعمال الصالحة فرائضها ونوافلها، يرقيها بالأخلاق الحميدة والمعاملات المشروعة.

أهمية التزكية ومكانتها في دين الله وفي حياة الإنسان:

١. جاءت الشريعة الإسلامية لتعطي الإنسان الخير كله في الدنيا والآخرة، فبين الله للعبد العلم الصحيح، وبين العمل المطلوب، وهيأ وسائل ذلك، وبعث الرسل وهيأ لهم خلفاء يرشدون إلى فعل الخير وترك الشر.

فأعطى ديننا كل الاهتمام لتطهير الإنسان من سيئاته ولإصلاحه وترقيته، وقد سمى الله تعالى حال الإنسان بهذا الاعتبار تزكية، فقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياته **ويزكيهم** ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فكما جاء النبي ﷺ ليتلو علينا ما أوحى الله إليه، ويعلمنا ما في القرآن والسنة من علم وحكمة وأحكام؛ فقد جعل الله من وظيفته تزكية النفوس، كما بينت الآية.

وبين الله تعالى أن على العبد أن يزكي نفسه وأن تزكيته لنفسه هي فلاحه وتحقيق مصلحته، فقال:

﴿ ومن **تزكى** فإنما **يتزكى** لنفسه ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿ قد أفلح من **تزكى** ﴾ [الأعلى: ١٤].

﴿ قد أفلح من **زكاها** وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وبين الله تعالى أن الأعمال الصالحة تزكي النفس:

قال سبحانه: ﴿ وسيجنبها الأتقى، الذي يؤتي ماله **يتزكى** ﴾ [الليل: ١٧-١٨]، فمن العمل الصالح الذي يتزكى به الإنسان ويتطهر إيتاء المال، وكذلك قوله تعالى: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم **وتزكيهم** بها ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وبين النبي ﷺ أن التزكية راجعة إلى الله تعالى، فهي فعله وتقديره ومشيئته. كسائر الأعمال، فكان يدعو: « اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها »[1].

٢. والتزكية هي التي يستحق بها الإنسان الفلاح والجنة، فلا يكفي علم ولا عمل، ما لم يكن معه تزكية للنفس، قال تعالى: ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها **وذلك جزاء من تزكى** ﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

٣. إن النفس هي المحل الذي **يعلم** الحق، وهي المحل الذي يمكن أن **يعمل** بالخير، فإذا كانت النفس سيئة أو مريضة لم تنتفع مما تعلم من الحق، بل إذا كانت متكبرة معرضة عن الحق صورت الحق باطلا، ولم تنتفع من الحق، بل تحاربه، وإذا كانت النفس كسولة مائلة إلى الشهوات تركت الخير ولم تعمل به، لذلك كان لا بد من العناية بإصلاح النفس، حتى تكون مستقيمة طاهرة، لتحمل الحق وتعمل به وتتحلى به.

فالنفس الصالحة الزاكية لا تكتفي بمعرفة الحقائق والعقائد من غير أن تتفاعل معها، بل تكون الحقائق محل اهتمامه، فيخضع لها ويوقن بها، ويجعلها المولد والمحرك لحياته وأعماله وواقعه، فعنها يصدر، ومنها ينطلق، فيتحول الاعتقاد إلى واقع يعيش على أساسه، ويسير في الحياة بناء عليه.

٤. إن التزكية لا تخص الأفراد، بل هي مطلوبة من كل فرد في المجتمع المسلم، ولا يمكن أن ترى الأثر العظيم لتزكية النفس حتى تظهر في المجتمع كله، فتظهر حقيقة العبودية فيه لله، وحقيقة الاستقامة وحقيقة الخلق الراقي والأدب الرفيع، وحسن المعاملة، وغير ذلك.

ولا يمكن أن تقوم حضارة راقية تسعد البشرية إلا على معاملة طيبة وأخلاق راقية، وكل حضارة تنقصها الأخلاق والمعاملات الصالحة فهي مهددة بالزوال، وأذاها لشعوب الأرض وإفسادها وتهديدها بالدمار سيكون أكبر من الخير الذي تقدمه أو تسعد به البشرية.

والتزكية إذا وجدت في المجتمع المسلم؛ فإنها وحدها من أعظم وسائل الدعوة إلى دين الله، فإن الناس إذا رأوا جمال خلق المسلم وحسن معاملته وأدبه وطيب كلامه؛ ينجذبون إليه ويميلون إلى دينه الذي تربى عليه وأوصله إلى هذا الجمال والرقي، ألا ترى إلى الإسلام كيف دخل كثيرا من البلاد. كشرق آسيا وبعض إفريقيا. بأخلاق تجار المسلمين وحسن معاملتهم وصدقهم.

٥. وإذا زكى الإنسان نفسه صار إنسانا طيبا صالحا جميل الأخلاق جميل الحال، صالحا بين يدي الله، محبوبا عند الناس، مرتاح الضمير، سليم التفكير، سعيدا في دنياه وأخراه[1]، فالتزكية تخرج رجلا ربانيا طاهرا مقبولا محبوباً خلوقا عابدا عاملا داعية مهذبا في قلبه وقالبه، لا تخرج مستكبرا مبغوضا مغرورا وقحا دعيا.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم ﷺ رقم ٢٧٢٢.

تعريف النفس التي تزكى وصفاتها

حينما نتكلم عن تزكية النفس نقول: تزكية النفس، فما هي النفس وما هو المقصود بالنفس في هذا التعبير؟

تعريف النفس لغة واصطلاحا

تطلق النفس عند أهل اللغة . وكذا عند علماء التزكية . على أمور كثيرة أهمها مما يتعلق بالإنسان ونفسه:

أنها تطلق على الروح، وتطلق على الجسد، وتطلق على العقل والتمييز، وتطلق على خاطر الإنسان وسره وروعه، وتطلق على القلب، وعلى ما يميل القلب إليه، وتطلق على الإنسان كله بجميع ما فيه من جسد وروح وعقل وقلب، وتطلق النفس على همة الإنسان، وتطلق على أنفته وكبره، وغير ذلك[٢].

وعند علماء التزكية تطلق النفس بالمعاني اللغوية السابقة كلها، لكن حينما تطلق النفس مضافة إلى التزكية فغالبا ما يقصد بها أحد أمرين:

إما جانب الشر في الإنسان، وإما الإنسان كله بذاته، بكل ما يحتويه من عقل وقلب وجسد وغيره.

فقد تقول: زك نفسك؛ وتقصد تطهير جانب الشر فيها، فيكون المراد جانبا من النفس والإنسان، وقد تقصد بهذا القول تطهير جانب الشر مع تنمية جانب الخير زيادته، فيكون المراد جميع نفسك.

والأولى أن تحمل النفس على معنى الذات؛ حينما نضيفها إلى التزكية، لما علمنا من شمول معنى التزكية للتطهير والترقية، إلا إذا كان سياق الكلام يدل على تقييد النفس بأحد معانيها الأخرى.

. والنفس تشمل العقل والقلب والجسد، وكل ذلك يحتاج إلى تزكية، وتشمل الروح.

والروح: هي اللطيفة التي بها حياة الجسم وقيامه وبقاؤه، ووجودها شرط في إدراك العقل وإرادة القلب وميله، وهي أمر غيبي لم تتعلق به أوامر الشرع إلا باعتبار مخالطته للجسد، وقد تسمى الروح نفسا باعتبار مخالطتها للجسد وإمدادها له، وتسمى روحا بالنظر إلى تجردها، وسماها بعض العلماء عقلا باعتبار أن التعقل لا يكون إلا بوجودها[٣].

والعقل: وهو اللطيفة التي يدرك بها الإنسان العلوم والمعاني والأشياء، وبها يميز بين الخير والشر، وبذلك يعقل صاحبه ويحجزه عن المهالك، وقد اختلف العلماء في محلها، فقال بعضهم: محلها الدماغ في الرأس، وقال آخرون: محلها القلب في الصدر، ولذلك يسمى العقل قلبا أحيانا[٤].

والقلب: يطلق القلب على تلك اللحمة الصنوبرية الشكل في الجانب الأيسر من الصدر، ويطلق على اللطيفة المعنوية الموجودة في هذه اللحمة.

وهو محل الإدراك والتعقل والتفهم[٥]، وهو محل الإرادة، وهو محل الرغبات والأهواء فيتقلب بين رغبة وأخرى، بين خير وشر، وهو المخاطب من الإنسان والمطالب والمعاتب[٦].

---

(١) إن من طهرت نفسه لا يقبل على نفسه النقائص والعيوب والمعاصي والانحراف والشهوات، بل ولا يقبل على نفسه نقص المروءات، فيعيش المسلم المزكى حالة نفسية طيبة: ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢]، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور: ج ٦، ص ٢٣٣ وما بعدها، والمفردات للأصفهاني ص ٥٠١.

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ٢، ص ٤٥٨، والجرجاني، التعريفات، ص ١٥٠، رقم ٧٤٣، والراغب، مفردات القرآن، ص ٥٩٥.

(٤) انظر: لسان العرب لابن منظور ج ١١ ص ٤٥٨ -٤٦٢، والتعريفات للجرجاني ص ١٩٦-١٩٧، رقم ٩٨٥ ، والحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة لزكريا الأنصاري ص ٦٧.

(٥) ويرى بعض العلماء أن العقل هو محل التعقل والتفهم، وأنه غير القلب.

(٦) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ج١، ص٦٨٥-٦٨٧، ومفردات القرآن، للراغب: ج١، ص ١٢٠٤، والتعريفات، للجرجاني: ص٢٢٩ رقم ١١٤٩.

والجسد: هو الشيء المحسوس من الإنسان، الذي يتوقف عليه صدور الأعمال الحسية، ويسمى الجسم، ويسمى البدن أو الأعضاء، ويسمى الجثة والجثمان(١).

الإنسان ونفسه

حينما نقول: يجب أن يزكي الإنسان نفسه أو يجاهدها، فكأنما نقول: هما اثنان، يزكي أحدهما الآخر أو يجاهده، وذلك كقول الله تعالى: ﴿ بل الأنسان على نفسه بصيرة ﴾ [القيامة: ١٤]، فكأن الإنسان طرفان؛ شاهد، ومشهود عليه، وما هو إلا واحد يشهد بعضه على بعض، وكقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه سبحانه: « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا **نفسه** »(٢)، فاللائم والملوم كأنهما طرفان في الإنسان. وفي الحقيقة ليست نفس الإنسان إلا هو، وإنما جاز مثل هذا الإطلاق لما ذكرناه من أن النفس تطلق على الإنسان كله بجميع ما فيه، كما تطلق على أجزاء منه كالعقل والقلب والروح والجسد، فحينما نقول يزكي الإنسان نفسه، فإن الجانب الذي يزكي في الإنسان يكون غير الجانب الذي يزكى.

يجب على طالب التزكية أن يدرك أن عوامل إصلاح ذاته كلها موجودة فيه، كما أن عوامل إفسادها كلها موجودة فيه، وأنت الذي تغلب جانبا على جانب لتزكي نفسك أو تدسيها، قال تعالى: ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد: ١٠] أي فتحنا أمامه سبيل الخير والشر، وقال تعالى: ﴿ ونفس وما سواها فألهمها **فجورها وتقواها**، قد أفلح من **زكاها**، وقد خاب من **دساها** ﴾ [الشمس: ٧-١٠].

ولما كان في نفس الإنسان من الاتجاهات المتعارضة والمتضادة؛ فإن الإنسان يعاني من هذه الصراعات داخل نفسه، فيغلب نفسه حينا وتغلبه أحيانا، أي يغلب جانب الخير فيها على جانب الشر، وأحيانا يغلب الشر، لذلك جاء أمر النبي ﷺ بأن يصارع الإنسان جانب الشر فيه فقال: « المجاهد من جاهد نفسه »(٣).

النفس كما وردت في النصوص ومعانيها

النفس بمعنى الروح:

قال الله تعالى ذاكرا قول الملائكة للظالمين عند الموت: ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي أرواحكم.

وقال الله تعالى: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ [الزمر: ٤٢]، أي الأرواح.

النفس بمعنى الذات:

---

(١) بعض التعريف مستفاد معناه من: لسان العرب، ج ١٢، ص ٩٩، ومفردات القرآن ص ٢٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٢٥٧٧.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه رقم ١٦٢١ وقال: « حديث حسن صحيح »، وأخرجه أحمد في المسند رقم ٢٤٠٠٤ وابن حبان في صحيحه، الإحسان رقم ٤٨٦٢ والحاكم في المستدرك رقم ٢٤ من حديث أطول منه وفيه: « والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله »، وفي رواية لابن حبان رقم ٤٦٢٤: « جاهد نفسه لله عز وجل » وفي رواية له رقم ٤٧٠٦: « من جاهد نفسه في الله »، ومثلهما عند أحمد في المسند رقم ٢٣٩٩٧.

قال الله تعالى: ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، أي كل ذات، فتشمل الإنسان كله بظاهره وباطنه، بروحه وعقله وقلبه وجسده.

وقال الله عز وجل: ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ [فاطر: ١٨]، أي لذاته كلها، فينتفع بكله.

النفس بمعنى الجسد:

قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي **خلقكم من نفس واحدة** وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾ [النساء: ١]، يعني جسد آدم عليه الصلاة والسلام، والمراد تناسل الأجساد من جسده، أما الأرواح فلكل جسد روحه الخاصة التي تنفخ فيه.

وبعض النصوص تحتمل أن يكون المراد بالنفس فيها الجسد، وتحتمل أن يكون المراد الجسد مع ما معه من عقل وقلب وروح، فمن ذلك:

قال الله جل وعز: ﴿ لا يكلف الله **نفسا** إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي لا يكلف جسدا إلا قدرته، ويجوز أن يكون المقصود الذات.

النفس بمعنى القلب:

قال الله تعالى: ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في **أنفسكم**، علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله، واعلموا أن الله يعلم ما في **أنفسكم** فاحذروه، واعلموا أن الله غفور حليم ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، فالأولى في الآية تتحدث عن ما خبأتم في قلوبكم، والثانية تتحدث عما نويتم، والنية في القلب، والله يعلم ما في قلوبكم وبواطنكم وخواطركم وأسراركم.

وقال الله سبحانه: ﴿ لِلَّهِ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي **أَنفُسِكُمْ** أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، أي ما تخفون في قلوبكم من نوايا وقرارات، وإنما يبديها الإنسان ويظهرها بكلامه أو أفعاله.

النفس بمعنى العقل:

قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ** حِينَ مَوْتِهَا **وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** ﴾ [الزمر: ٤٢]، فالأنفس التي وصفها بأنها تتوفى في منامها هي العقول.

من صفات النفس التي تحتاج إلى تطهير وتزكية

هذه نماذج مما بينه الله تعالى ونبيه ﷺ من صفات النفس التي يجب تطهيرها ومجاهدتها وتزكيتها:

. قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يوسف: ٥٣] من طبائع النفس إذا تركت من غير تزكية وتطهير أنها تميل إلى السوء وتأمر به.

. قال الله جل وعز: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠]، فالنفس تُطَوِّع وتهوِّن فعل السوء والمعصية الكبيرة والجريمة.

. قال الله تعالى: ﴿ قال[١]: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾، فالنفس تحدث بالسوء وتزينه وتحببه وتحسنه وتدفع إليه، ومثله قوله تعالى ذاكراً قول السامري: ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾.

. قال الله عز وجل: ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات ٤٠-٤١]، فالنفس تهوى أشياء وتميل إليها وتحبها، وتعرض عن أشياء فتكرهها ولا تميل إليها، تخالف بذلك أمر ربها.

. قال الله سبحانه: ﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾، فمن صفات النفس: الشحُّ، أي البخل، ويجب التطهر منه.

. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم . إذا هو نام . ثلاث عُقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد[٢]، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »[٣]، فالنفس توصف بالنشاط والطيب، كما يمكن أن تكون خبيثة كسلانة، وأعمال الطاعات تكون سبباً في طيبها ونشاطها، وتركُ الطاعة والشيطانُ يكونان سبباً في الخبث والضعف.

. قال النبي ﷺ : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه »[٤]، فمن صفات النفس أنها تشتهي شهواتٍ وتتمنى أماني، وما ذكره الحديث هو أماني النفس الباطلة وشهواتها المحرمة، لأنه عدها من الزنا.

درجات النفس بين التدسية والتزكية

يقول الله تعالى: ﴿ ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها[٥] ﴾ [الشمس: ٧-١٠]، تبين الآيات أن النفس قابلة لصفات متقابلة، وليست صفات السوء والخبث والغواية ملازمةً لها، بل يمكن أن تتزكى وتَطْهُر؛ لتصير طيبة طاهرة محبة للخير والحق، لتصير ذات صفات حسنة كريمة زاكية، يتطلع إليها كل مسلم، والمراحل التي يمكن أن يمر بها الإنسان في ترقيه وتدنيه:

١. النفس الأمارة بالسوء:

---

(١) أي يعقوب عليه الصلاة والسلام.

(٢) أي ما زال الليل طويلاً فنم.

(٣) رواه البخاري ١٠٩١ ومسلم ٧٧٦.

(٤) رواه البخاري ٥٨٨٩ ومسلم ٢٦٥٧، وفي رواية أخرى عند مسلم: « والقلب يهوى ويتمنى ».

(٥) دساها تدسية: أي جعلها خسيسة خبيثة. انظر: لسان العرب لابن منظور: ج٦، ص٨٢، ذكر البخاري عن مجاهد قال: « دساها: أغواها »، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة والشمس وضحاها ... قبل حديث رقم ٤٦٥٨.

أسوأ حالات النفس وأخبثُها أن تكون مُحِبَّةً للسوء والشر والباطل، تأمر به، وترغب فيه، ولا ترى فيه عيباً، قال الله تعالى فيما قصه عن امرأة العزيز:

﴿ وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء، إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم ﴾ [يوسف: ٥٣]، والآية تدل على أن الإنسان ما لم يدخل في رحمة الله وهدايته، فإن الأصل في نفسه أنها تميل إلى السوء وتأمره به.

وأعظمُ السوء سوء الأدب في حق الله تعالى؛ بالكفر والتكذيب بما يجب الإيمان به، ثم من السوء: معصية الله بفعل المنكَرات والمذمومات والمكروهات والمستحقَرات.

وصاحب هذه النفس الأمارة بالسوء؛ تحب نفسه السوء وتأمره به، فيندفع إلى السوء والباطل والمعصية، ولا يبالي، كما وصف عبدُ الله بنُ مسعودٍ ﷺ الفاجرَ حين قال: « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا »[1].

وصاحب هذه النفس يجعل من أهوائه وشهواته حاكماً عليه، فكأن نفسه إلهه:﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾.

وصاحب النفس الأمارة بالسوء تأمره نفسه بالسوء والمعصية والشر، ولا يكره ذلك من نفسه، ولا يرجع إلى عقله، ولا يرجع إلى أحكام الله ليزن بها رغباتِه وأعمالَه، **فإذا أراد أن يزكيها وَجَّه قلبه إلى معرفة الخير والحق، وبحث عنهما، ورغب فيهما**، وديننا كله حق وخير، فالله تعالى قال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] أي إلى الإسلام وما فيه من أحكام.

٢. النفس اللوامة:

فإذا زكّى الإنسان نفسه شيئاً ما، فزكى سرّه وقلبه وخاطره وتَوَجُّهَه، فتوجه نحو الخير وأحبه ورغب فيه، وكره الشر وأعرض عنه ولو بفكره وعقله وخاطره وقلبه، فإنه يترقى إلى مرتبة أخرى، فعندئذ لو وقع في المعصية أحياناً فإنه لا يرضى بها، ويحزن من وقوعه فيها، ويرفضها بعقله وفكره، قال الله تعالى فيمن هذا شأنه:

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ [القيامة: ١-٢].

فهذا إنسان تطهَّرت نفسه من حب الشر، لكنه قد يميل بقلبه إلى الشهوة والمعصية أحياناً، فتغلبه نفسه فيقع فيها، لضعفٍ ما زال فيه، أو لغفلة تنوبه، لكنه يراجع نفسه ويلومها إذا أخطأ، ويحزن لمعصيته.

وإذا لامَ الإنسان نفسه على المعصية وصدق في كرهه لها؛ استغفر منها، وبحث عن سبيل التخلص منها، وابتعد عن أسبابها، كما يحرص على البعد عن النار، وشغل نفسه بالحق عنها، ورافق الصالحين ليتشبه بصلاحهم، فيوشك أن يترقى إلى حال أحسن وأزكى.

٣. النفس المُلْهَمة:

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٩٤٩.

إذا تعمّق حبُّ الخير وبُغضُ الشر في النفس؛ صار حديث العقل والقلب والنفس في السر والباطن كلّه متوجهاً نحو الخير والصلاح، فتصير النفس تلهم صاحبها بهما، قال تعالى في شأن هذه النفس: ﴿ **ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ [الشمس: ٧-٨]. فالتي ألهمت الفجور هي النفس الأمارة بالسوء، وللنفس اللوامة نصيب من ذلك، والنفس التي ألهمت التقوى هي هذه النفس الطيبة التي نتكلم عنها. قد تحقق بهذا الوصف: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات: ٧].

والنفس تلهِمُ وتُوسوس، ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ [ق: ١٦]، توسوس لصاحبها بما تميل إليه وتحبه وترغب به، فإن كانت ترغب في الخير تحدثت به إلى صاحبها به، وإلا كان حديثها شراً.

وإذا قوّى صاحب هذه النفس حب الخير والتقرُّب؛ تزكّى وترقّى إلى حالة أسمى، لا يرضى معها أن يترك خيراً أو يتأخر عنه؛ فرضاً أو نافلة، خلقاً أو أدباً، عملاً أو قولاً، حالاً أو مقاماً، ظاهراً أو باطناً.

٤ . النفس المطمئنة:

إذا أحب العبد الخير والحق وجرى خاطره دائماً فيهما، وصل إلى حد الاطمئنان بهذا الخير والحق، فهو مطمئن إلى الله سبحانه، مطمئن إلى وعد الله، مُستَلِم لشريعته وأحكامه، فلا يعارض شيئاً من الحق،

قال الله تعالى في حق صاحب هذه النفس: ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾.

وتَعَلُّقُ العبد بربه . بكثرة ذكره وتعظيمه . هو أعظم ما يورث هذا الاطمئنان، وهذا الاعتماد على الله وهذا الاستقرار على شرع الله: ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [الرعد: ٢٨].

فلو حدثته نفسه أو شيطانه بشهوة أو معصية؛ فلا اطمئنان عنده إليها، ولا ارتياح عنده منها، وإذا حدثته نفسه أو المَلَكُ بالخير ارتاح إليه وتحرك نحوه ولم يتردد.

ومما يفترق به صاحب النفس المطمئنة عن صاحب النفس الملهمة الذي لم يطمئن بعد: أن الملهم قد يتجاوب مع ما ألهم به وقد لا يتجاوب، فيحتاج فيما لم يتجاوب معه إلى مجاهدة نفسه حتى يأتي بالطاعة والخير، أما هنا فلا يجد في نفسه تعباً ولا مكابدة ولا معارضة فقلبه مستسلم لحكم الله عز وجل، لا يرضى معه حَكَماً غيره، لا حُكْمَ نفسِه ولا غيرِه، فهذا الذي تحقق بالإيمان حقاً: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ [النساء: ٦٥].

أهداف التزكية ومقاصدها

أهداف التزكية ومقاصدها تندرج تحت هدفين عامّين: تطهيرٌ للنفس، وترقية لها.

وأهداف التزكية إنما هي هدف واحد، هو الهدف الأسمى الذي نتطلع إليه ونسعى إليه، لكنه يمكن أن نسمي هذا الهدف بعشرات التسميات ونَصِفُه بعشرات الأوصاف، وكلها تصب في النهاية في معنى واحد، فكل وصف من هذه الأوصاف يحمل في طياته الأوصاف الأخرى، فيمكن. مثلاً. أن نسمي الهدف الأسمى بأنه العبودية ويمكن أن نسميه بأنه الإحسان، ولا يكون الإنسان محسناً إلا إذا تحقق بالعبودية، وإذا تحقق بالعبودية على أحسن أوجهها كان محسناً ... وهذا بيان هذه الأهداف:

١. **العبودية**: وهي أهم مطلب إذ لأجلها خلقنا، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

ومن جعل العبودية بإخلاصها وأعمالها وأخلاقها مقصوده ثبت على الطاعة والعبودية حتى يتوفاه الله، لكن الذي يجعل لنفسه هدفاً آخر كأن يكون ولياً أو يذوق حلاوة الإيمان؛ فربما أوقف بعض عمله ونوافله وقصَّر في اجتهاده إذا ظن أنه بلغ ما يريد، أو يتوقف عن اجتهاده إذا يئس عن بلوغ المقام الذي جعله لنفسه هدفاً، لكن العبودية وأعمالها لا انتهاء لها إلا بالموت، فمن جعلها مقصوده لا يتركها إلا بالموت ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر: ٩٩] واليقين هنا هو الموت، سماه الله يقيناً لأن كل بشر مستيقن من أنه سيأتيه.

٢. **الصديقية: وهي أعلى المقامات وأعظم الدرجات**، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء: ٦٩]، فأرقى الناس النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون، على تفاوت درجات كل مرتبة.

والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون والقليل، فليس بعاقل من لم يطمح إلى الأعلى والأكمل والأعظم أجراً عند الله، وذلك ممكن: « وإنه ليسير على من يسره الله عليه »(١)، ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾.

وقدوتنا في هذا رسول الله ﷺ يطلب المزيد ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾، وقدوتنا فيه أيضاً الصديق أبو بكر ﷺ إذ يطمع بأعلى المراتب ويطمع بأبواب الخير كلها، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ » ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، **فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا** ؟ قَالَ: « نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » رواه البخاري رقم ١٧٩٨ ومسلم رقم ١٠٢٧، وفي رواية: « أنت منهم ». فانظر كيف طمع أبو بكر بأن يدعى من الأبواب جميعاً، فهو يجتهد في كل باب يستطيعه من أبواب الخير والطاعة.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٦١٦ والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي : حسن صحيح.

٣. **الإحسان:** وهو أن يكون العبد طالباً للأحسن في كل شيء، فهو يجعل عبادته على أحسن حال في أداء أركانها وهيئاتها وسننها وخشوعها وتحقيق مقاصدها، وهو في كلامه يتكلم بأحسن الكلام وأزكاه، وفي معاملاته يتصرف بأرقى التعاملات وأحسنها، وفي أخلاقه يكون على أرفعها وأجملها وأرقها وألطفها أعظمها وأحسنها.

وقد أمرنا الله بالإحسان وبين لنا أن المحسن محبوبٌ عنده: ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والنبي ﷺ حينما عرف الإحسان بقوله: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1]؛ إنما عرف الإحسان بأعظم وسائل الوصول إليه، وهي مراقبة الله وتذكر رؤيته لك.

٤. **طلب التقوى وآثارها:** لما كانت المكرمة عند الله بالتقوى فهي مطلب الصادقين وسبيل الفلاح ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ، والتقوى هي حالة الحذر والخوف من الله تعالى التي تحجز العبد عن فعل المعاصي وتدفعه إلى فعل الطاعات ليقي نفسه من غضب الله وعذابه.

والتقوى لا تخرج عن هذا المعنى حقيقة، لكنّ من العلماء من عرّف التقوى بثمراتها وآثارها، ومنهم من عرّفها بمقدماتها، ومنهم من عرفها بما يرافقها من الأحوال، وغير ذلك.

والتقوى درجات، قال تعالى: ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما **اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات** ثم **اتقوا** وآمنوا ثم **اتقوا وأحسنوا** والله يحب المحسنين ﴾، فذكر الله تعالى التقوى مع رتبة الإسلام، ثم التقوى مع رتبة الإيمان، ثم التقوى مع رتبة الإحسان، ثم ندبنا الله تعالى إلى أن نتطلع إلى تقوى المحسنين فقال: ﴿ والله يحب المحسنين ﴾، والله يحب المسلمين والمؤمنين لكنه ذكر حبه للمحسنين لنتطلع إلى رتبة التقوى العليا التي هي التقوى مع الإحسان.

والتقوى كما هي سبب في نجاة صاحبها؛ فهي سبب في ثمرات عظيمة:

يقول الله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، والصادق الراغب في تزكية نفسه يحتاج إلى تفريق بين الحق والباطل، حتى لا يزيغ من حيث لا يشعر، وقد جعل الله التقوى سبيلاً إلى ذلك، وعداً منه سبحانه.

ويقول عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فالتقوى سبيل السعادة والراحة والاطمئنان والنجاة، فلا يقع العبد في مأزق أو مصيبة إلا ويجد من الله العون والخلاص، فيصفو قلبه، ويركن إلى ربه، وذلك من أعظم أسباب وسُبُل الإقبال على الله والاشتغال بطاعته ودعوته.

ويقول جل جلاله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ [الطلاق: ٤]، وبتيسير الله تقضى الحوائج وتتيسر المطالب، وتُبارك الأعمال والأوقات، وتنتفي المنغِّصات والمكدرات.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

ثم إن التقوى سبيل بركة الأجر وتكثيره، كما هي سبيل مغفرة الذنوب، يقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ [الطلاق: ٥]، فهنيئاً لأهل التقوى.

٥. **طلب الكمال:** ولا يزال الرجل يطلب الأعلى والأكمل، حتى ينافس الرجال في الكمال، وليس هذا كمال ألوهية، فإن كمال الألوهية والربوبية هو لله وحده، لا يشاركه فيه أحد لا بقليل ولا بكثير، أما كمال العباد فهو كمال عبودية، وقد بينَ النبي ﷺ أن هذا الكمال موجود وممكن وأهله كثير، فلِمَ لا تتطلع لأن تكون واحداً من الكاملين ؟ قال رسول الله ﷺ : « كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » رواه البخاري ومسلم، على أن هذا الكمال نسبي يتفاوت فيه أهله، فليس كمال الصديقين ككمال الأنبياء، ومن لم يستطع نوال الكمال فليبذل جهده للقرب منه، وللسير في طريقه.

٦. **إرادة وجه الله تعالى ورضوانه والجنة:** فكل ما يفعله المسلم ينبغي أن يكون مريداً به وجه الله وضوانه، قال تعالى: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي **يريدون وجهه** ﴾، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ **يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ** وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً **يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً** ﴾، وقال تعالى يصف حال المؤمن الذي جعل هدفه رضوان الله فهو يبحث عما يرضي الله ويتبع طريق ذلك: ﴿ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، واتباع رضوان الله هو سبب في هداية الله للعبد: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

والجنة هدف لمن يزكي نفسه، فهي جزاؤه على تزكيته لنفسه، كما قال تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى ﴾ [طه: ٧٦].

وإذا كانت الجنة هدفاً للمسلم، وهي نعم الهدف والمقصد، فرضوان الله أيضاً هدف، وهو أعظم وأكبر من الجنة، كما بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

٧. **الاستقامة:** وهي أن يلتزم الإنسان بأمر الله كله، في الجملة، والاستقامة هي سبيل إلى الهدف من وجه، لكنها من حيث هي مطلوبة من العبد في الدنيا تصير مقصوداً له يبحث عنه ويهدف إليه، قال سبحانه: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[هود: ١١٢]، وقال ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم »(١). والاستقامة تشمل استقامة الباطن والظاهر على أمر الله « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن الله ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »(٢).

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤.

٨. **السبق والقرب**: إن الذي يضع في باله أن يسابق الناس في دراسة أو عمل أو رياضة؛ لا شك أن مسابقته تفتح أمامه باب الاجتهاد والمنافسة في الرتب العالية، وأولى ما يتنافس فيه الناس مراتب الآخرة، وقد أمرنا الله بالمسابقة: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[الحديد: ٢١].

وقد ميز الله السابقين عن أهل الجنة حينما خصهم بالقرب فقال: ﴿ والسابقون السابقون، أولئك المقربون، في جنات النعيم، ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين ﴾ فذكر لهم جنة وميزهم بأنهم مقربون، بينما لم يذكر لأصحاب اليمين إلا جنتهم: ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، في سدر مخضود ... ﴾.

ولا شك أن للمقرب حظوة ليست لغيره، ألا ترى لو أن ملكاً من ملوك الدنيا قضى جميع حوائجك، وأعطاك جميع شهواتك ورغباتك، وأسكنك قصراً وبستاناً، وجعل لك خدماً ورتبة، لكنه لم يخُصَّك بمجالسته، ولم يفتح لك بابه في كل وقت تشاء، هل تكون كمن أعطاه ذلك العطاء ثم زاد عليه أن قال له: ادخل عليَّ متى شئت، وجعله نديماً له، ومقدماً عنده ومُكرَّماً، فهل يستويان ؟

لأجل ذلك فالقرب واللقاء أعظم من الجنة، قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، فسمى الجنة حسنى، وسمى النظر إلى وجهه زيادة، ليبين لنا أنه أعظم منها وأزيد.

وقد بينت الآيات السابقة أن هؤلاء المقربين قليل في آخر الزمان، فاطمع أيها العبد المسلم أن تكون منهم، وشمِّر واتخذ الأسباب للوصول إلى هذه الرتبة.

٩. **الولاية**: وهي مقصود للعبد يصل به إلى الأمان عند الله، قال تعالى: ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾، وقد بين الله تعالى كم هي كرامة وليه عنده حينما قال فيما رواه عنه النبي ﷺ في الحديث القدسي: « من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب »[١] .

- ومن أهداف المسلم أن يتحقق بقوله تعالى: ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وقوله: ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ .

وما ذكرناه جميعاً يتعلق بالفرد ابتداءً ثم يكون نفعه على المجتمع من حوله، ويجوز أن يكون قصد الإنسان وهدفه بعد ذلك متعلقاً بأهل الإيمان وأهل الأرض جميعاً، كمن يهدف إلى إقامة حكم الله وشرعه في الأرض، لينتقل العبودية إلى غيره، فالله لا يريدك وحدك عبداً وإنما يريد أهل الأرض جميعاً عباداً له، قال تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

حكمُ التزكية

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

قال تعالى: ﴿ قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسّاها ﴾، في هذه الآية وغيرها رَتَّب الله الفلاحَ ودخولَ الجنة على وجود التزكية في نفس الإنسان، ورتب الخيبة ودخول النار على عدم التزكية، فدل ذلك على أن التزكية أمر واجب . في الجملة . لا ينجو الإنسان إلا به.

ومن التزكية وأعمالها . الفكرية والقلبية والعملية . ما أوجبه الله تعالى، ومنها ما هو مندوب، فيكون أصل الفلاح مترتباً على واجباتها، ويكون كمال الفلاح وزيادته مترتباً على مندوباتها. فإذا كانت التزكية تتعلق بالعقائد، كتطهيرِ الإنسانِ فكرَه من الشكوك في صفات الله وكتابه واليوم الآخر، فالتزكية التي يحتاجها هذا الإنسان هي من أعلى الفرائض، لأنها قضية إيمان واعتقاد.

. وقد يكون الفعل الذي نزكي به أنفسنا مندوباً، لكنه وسيلة إلى تحقيق فرض من الفرائض؛ فيصير المندوب واجباً لأجل ذلك، لأن « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ». والتزكية هي السبيلُ لتحقيق أوامر الله وترك معاصيه؛ لذلك فهي واجبة وفرض حيثما كانت وسيلةً لإقامة فروض العين.

وتكون التزكية مندوبة حيثما كانت وسيلة لإقامة المندوب.

وكل وسيلة مشروعةٍ تتوصل بها إلى التزكية من علم أو مجاهدة للنفس أو صحبة للصالحين أو ذكر أو غير ذلك؛ تأخذ حكم ما تؤدي إليه من تثبيت الإيمان أو إقامة الفرائض أو التحقق بالفضائل.

ولا يزال المؤمن العاقل يطلب المزيد من التزكية، يطلب حدها الأعلى والأكمل وهو أن يشابه رسول الله ﷺ ويتشبه به قدر استطاعته، ويتابعه في كل شيء، ظاهراً وباطناً، وعلماً وعملاً، ومعاملةً وهيئةً، وخُلُقاً وعبادة، وحالاً وصفاءاً، ودعوة وتعليماً، وجهاداً وحكماً.

نماذج من تزكية النبي ﷺ لأصحابه

من وظائف النبي ﷺ تزكية أصحابه، وهذه نماذج نذكرها من تزكيته لأصحابه رضي الله عنهم:

. سمع رسول الله ﷺ بعض الناس يقولون: (ما شاء الله وشئتَ) فقال ﷺ : « لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان »[1]، ومعلوم أن الصحابي حينما يقول: (ما شاء الله وشئت) يعلم أن مشيئة رسول الله ﷺ ليست كمشيئة الله عز وجل، وأن مشيئة الله غالبة، فإذا لم يشأ الله شيئاً فلا مشيئة لغيره، لكن ظاهر عبارته يُشعِر بأنه يُسوِّي بين مشيئة الله ومشيئة غيره، فيُخشى أن يُظن به أنه يعتقد اعتقاداً باطلاً، فصحح له ﷺ عبارته، وعلَّمنا كيف نقول، بما لا يورث إشكالاً عند الآخرين إذا سمعوا هذه العبارة، فقال له: « قل: ما شاء الله ثم ما شاء فلان » وفي هذا تطهيرٌ وتزكيةٌ لأقوال الإنسان وعباراته، وتزكيةٌ للاعتقاد من أن يدخله الباطل، وتنبيهٌ إلى التأدب بعدم الإخلال بالتوحيد لله أدنى إخلال.

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد رقم ٢٣٣١٣ وأبو داود رقم ٤٩٨٠ والنسائي في سننه رقم ١٠٨٢١ عن حذيفة ﷺ ، وللحديث شواهد.

. قال ﷺ لأبي أمامة الباهلي ﷺ حينما طلب منه أن يدله على عمل ينفعه ويدخله الجنة، فقال ﷺ : « عليك بالصيام[1] فإنه لا عِدْلَ له »[2]، والنبي ﷺ بهذا التوجيه يريد تزكيته، فيحركه إلى التزكية من خلال عمل ظاهر هو الصيام، مبيناً له أن لا عِدْلَ له، أي لا مثيل له في الأجر ولا مثيل له في أثره في تزكية النفس، إذ كل عبادة لها أثرها الخاص في تزكية النفس. وقد عمل أبو أمامة بوصية رسول الله ﷺ ، فما رؤي أبو أمامة ولا امرأته ولا خادمه إلا صياماً، قال أبو أمامة: فلبثت بذلك ما شاء الله ثم أتيته فقلت: يا رسول الله أمرتنا بالصيام فأرجو أن يكون قد بارك الله لنا فيه، يا رسول الله فمرني بعمل آخر، قال: « اعلم أنك لن تسجد لله سجدة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة »[3]، وهذا أيضاً توجيه آخر إلى عمل يكون سبباً في التزكية، شجعه عليه بما ذكر من أجره العظيم وتطهير النفس به من الذنوب والخطايا.

. قال الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: « لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل »[4]، فوجهه إلى المحافظة على عمل كان يعمله، يريد تزكية عبد الله بذلك ودفعه إلى عمل صالح يزيده طهارة وقرباً من ربه، ويعلمه المحافظة على الأعمال لما فيها أيضاً من المحافظة على صلاح النفس.

. أتى شابٌ إلى النبي ﷺ وقد اشتدت شهوته وغلبت عليه حتى صار يفكر بالزنا، ولكنه مع ذلك لم يستعجل إلى الحرام فجاء يستأذن رسول الله ﷺ فقال: « يا رسول الله ائذن لي بالزنا »، فلم يزجره النبي ﷺ ولم يوبخه أو يستحقره، ولكنه طهره من الميل إلى الفاحشة وزكاه بالإقناع والدعاء.

عن أبي أمامة ﷺ أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في الزنا، قال: فصاح القوم به وقالوا: مه مه [أي اسكت]، فقال رسول الله ﷺ : أُدْنُهْ ؟[أي قرب مني]، فدنا حتى كان قريباً من رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أتحبه لأمك؟ فقال: لا يا رسول الله، جعلني الله فداك، فقال رسول الله ﷺ : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، ثم ذكر مثل ذلك في العمة والخالة، ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه »، فلم يكن بَعْدُ ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[5]. فنبّه عقل الشاب من خلال هذه الأسئلة، ونأخذ من هذا قاعدة؛ أن من أعظم ما يزكّى به الإنسان الفكرةُ الصحيحة التي تُقنِع الإنسان، وتُغْرَسُ في عقله وقلبه، ثم دعا النبي ﷺ وهذا سبيل لتزكية الآخرين أيضاً فخرج وقد طارت الشهوة من قلبه وفكره.

. عن أبي بن كعب ﷺ قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها

---

(١) وفي رواية: « بالصوم ».

(٢) أخرجه ابن حبان رقم ٣٤٢٦ وفي رواية: « لا مثل له » والحاكم وصححه رقم ١٥٣٣.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٢١٩٤، والنسائي في السنن الكبرى نحوه رقم ٨٦٩٨، والعبارة الأخيرة قال النبي ﷺ نحوها لثوبان ﷺ ، مسلم رقم ٤٨٨.

(٤) رواه البخاري رقم ١١٠١ ومسلم رقم ١١٥٩.

(٥) حديث صحيح، رواه أبو أمامة ﷺ، أخرجه أحمد في مسنده ج ٥ ص ٢٥٦ رقم ٢٢٢٦٥ والبيهقي في شعب الإيمان ج ٤ ص ٣٦٢ رقم ٥٤١٥ والطبراني في الكبير.

عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرءا، فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية[1]، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فَرَقاً[2]، فقال لي: « يا أبي أرسل إلي أنِ اقرإ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هَوِّن على أمتي، فرد إلي الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم ﷺ »[3].

فهاهنا كانت تزكية النبي ﷺ على سبيل المعجزة الخارقة، فبضربة من سيدنا نبي الله ﷺ على صدر أُبيّ انتقل أُبيّ من حالة شك وتكذيب تزيد على حالة الجاهلية إلى أعلى مقامات الإحسان وكأنه يرى الله، وحصل له فيها من تعظيم الله والهيبة منه شيئاً عظيماً وهو ما عبر عنه بقوله: « فَرَقاً » أي من شدة الخشية.

. وكانت أفعالُ رسول الله ﷺ وأقوالُه بجمالها وكمالها سبيلاً من أعظم سبل تزكيته لأصحابه، تدعوهم إلى متابعته والاقتداء به، لما يرون من حُسن حاله ومقاله وفعله، فالقدوة الحسنة من وسائل تزكية الآخرين، ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾.

وكما أن رسول الله ﷺ كان من وظيفته أن يزكي أصحابه؛ فإن هذه الوظيفة تنتقل إلى وُرّاثِ النبي ﷺ مِن بَعده، الذين ورثوا من علمه وورثوا من عمله وورثوا من صلاحه وحاله ومن دعوته وجهاده ﷺ، فمِنْ واجبِ العلماء والصالحين والمربين أن يقوموا بتزكية الناس بالقول السديد والحال الطيب والقدوة الحسنة.

---

(١) أي شك بالنبي ﷺ أكثر من شكه الذي كان عنده قبل أن يُسلم.

(٢) « فرقاً » : شدة الخوف والهيبة والخشية.

(٣) رواه مسلم رقم ٨٢٠.

الوحدة الثانية: تزكية العقل والفكر

العقل ووظيفته

تمهيد: تبدأ التزكية من المعرفة بالحقائق الثابتة التي يجب أن يؤمن بها الإنسان، فإذا عَرَفَ الحقَّ ثم آمن به اهتدى القلب، قال الله سبحانه: ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾، وإذا عرف الحق ومال عنه إلى الباطل فقد انحرف القلب، قال تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾، وإذا اهتدى القلب دفع صاحبه إلى العمل الصالح، وإذا انحرف دفع صاحبه إلى العمل الفاسد.

العقل لغة: العَقْلُ: الحِجْرُ .أي المنع .والنُّهى ضِدُّ الحُمْق، والمعْقُول: ما تَعْقِله وتدركه بقلبك، والعَقْلُ: التَّثَبُّت في الأُمور، وسُمِّي العَقْلُ عَقْلاً لأَنه يَعْقِل صاحبَه عن التَّوَرُّط في المهالِك أَي يَحْبِسه، فالعاقِلُ هو الذي يَحْبِس نفسه ويَرُدُّها عن هواها، وعَقَلَ الشيءَ يَعْقِلُه عَقْلاً: فَهِمه، والعقل: المنع، لمنعه صاحبه من العدول عن سواء السبيل[1].

العقل اصطلاحاً: هو اللطيفة[2] التي يدرك بها الإنسان العلوم والمعاني والأشياء، وبها يميز بين الحق والباطل، والنافع والضار.

المهمة الأساسية للعقل هي التفكير أو التفكر للوصول إلى العلم:

فبالعقل يمكن تحصيل العلم، ولذلك نجد النصوص القرآنية كثيراً ما تتوجه إلى الكافرين والغافلين تطالبهم بالتفكير للوصول إلى الحقائق.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم: ٨]، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

والتفكر هو نظر العقل في الأدلة بترتيب أمور معلومة في الذهن ليصل من خلالها إلى علم أمر مجهول عنده.

تزكية العقل بفعل ما يوصله إلى الهداية والحق

إن تزكية العقل إنما تكون باستعمال العقل على وجهه الصحيح، والاستفادة منه في الوصول إلى الصواب والحق، وأن يلازم استعماله في التوصل إلى الحقائق والانتفاع منها، مع تطهيره من التفكير المنحرف والنتيجة

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور ج ١١ ص ٤٥٨ -٤٦٢. الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، ص ٦٧، لزكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى.

(٢) ومعنى قولنا: « لطيفة » أي إن العقل أمر معنوي موجود، لكنه غير حسي، وإن ارتبط بموضع حسي من الجسد.

المنحرفة الخاطئة، فذلك الذي تبدأ به تزكية النفس، وهو الذي يقود إلى تزكية القلب وأحواله، وإلى تزكية الجوارح وأعمالها.

١. استعمال العقل:

الله تعالى أمرنا بالتفكر في مثل قوله: ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ ﴿ أفلا تعقلون ﴾؛ والله يحثنا بذلك على استعمال العقل، وينبهنا إلى أننا يمكن أن نصل إلى الحق باستعماله.

ونبهنا الله إلى أن عدم التعقل يمنع كل فائدة، حتى من الأنبياء، قال تعالى: ﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ﴾ [يونس: ٤٢]. وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل

واستعمال العقل لا بد أن يكون استعمالاً سليماً منطقياً، حتى يصل إلى النتائج السليمة من خلال البدهيات التي أوجدها الله في عقل الإنسان، ومن خلال جمع الحقائق الثابتة ثم استنباط نتيجة صحيحة منها، وباستعمال براهين وحجج وأدلة سليمة تدل على النتيجة، ومن خلال الاستقراء والاستنتاج، وبالاستفادة من الحقائق التي توصل إليها الآخرون.

٢. بحث العقل عن الحقائق الكبرى المهمة:

العقل إذا استُعمِل ينفع صاحبه، لكنه إن اقتصر صاحبه على التفكير به في أمور خسيسة أو في جوانب دنيوية ولذّات ومصالح قريبة؛ فإن فائدته تكون خسيسة أو متواضعة بقدر خسة ما فكر فيه.

وإذا أهمل الإنسانُ التفكيرَ بعقله في الأمور الخطيرة والمصالح الكبرى، وفي البحث عن الحقائق المهمة في الوجود؛ فإنه لا يكون قد استفاد من عقله الاستفادة المطلوبة.

والحقائق الكبرى التي يجب أن يهتدي إليها الإنسان ويبحث عنها هي أركان الإيمان، وما ينبني عليها، وما يَلْتَحِقُ بها، فإن أخطأها ولم يصل إليها فذلك هو الضلال والانحراف الكبير، فمهما أصاب الإنسانُ خيراً وعرف أموراً غير ذلك؛ فلن ينتفع منها، ما لم يصل إلى هذه الأمور التي هي أهم وأولى بالمعرفة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ١٣٦].

٣. توجُّه العقل والقلب والجسد إلى طلب الحق والهداية:

إذا أدرك الإنسان أن هناك حقائق كبرى لا بد أن يبحث عنها، فإنه لا يتحرك نحو البحثِ عنها وطلبِها إلا إذا رغب قلبه بذلك، فإذا تحركت رغبة الإنسان وإرادته ومشيئته إلى طلب الحق فهذا الذي يمكن أن يهتدي إليه بإذن الله، قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ، لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: ٢٧-٢٨]، ثم بين أن مشيئة كل واحد من العالمين متوقفة على مشيئة الله، فقال: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩]، وليس المقصود من الآية أن يقول للناس إنكم حتى لو أردتم الهداية فإني أمنعكم إياها، فالله لا يظلم الناس مثقال ذرة، وإنما المقصود بيان إرادته ومشيئته المطلقة، وبيان أنه حتى مع إرادتك